صور من الحياة :

قبعـــــة ...

للأستاذ كامل محمود حبيب

أتذكر – يا صاحبي – يوم أن لبست القبعة لأول مرة ، يوم أن كنت ترسف في قيود أربعة ؟ : أبيك وهو جاف الطبع شيطاني الجبلة أرضي النزعة ، وأمك وهي مستكينة واهية متداعية ، ورئيسك وهو يستذلك بفضله وأياديه ، وعميدك وهو يتخذك صنيعة له وداعية لأغراضه . لطالما استيقظت كرامتك فتراءيت في عين نفسك سقيم الوجدان مسلوب الرأي والإرادة ، وكنت لا تجد خلاصاً إلا أن تعق والديك فلا تزورهما أبداً ولا تعنى بأمرهما ، وإلا أن تستخذي لرئيسك وأن تتودد لعميدك عسى أن تكسب الرضا أو تدفع الأذى .

ورأيت الميناء يموج بالسفر من كل جنس ، وإلى جانب كل مسافر ثلة من الأهل والأصدقاء يودعون وينصحون ويشجعون . وإن كلمات الوداع الحارة لتتصاعد حواليك تمس مسمعيك ، وإن عبرات الحب والإخلاص لتنهمر هنا وهنالك على خطوات منك لتكون قذى في عينيك . ولكنك أنت لم تجد صاحباً واحداً يرقه منك وينفث فيك من روحه ومن شجاعته ومن حبه ، فوقفت وحيداً تنظر .

وتحركت الباخرة فوقفت على ظهرها جامداً ترمق أرض الوطن وهي تتوارى خلف الأفق فما نبض قلبك بشوق ولا خفقت روحك بحنين ولا جاشت مشاعرك بعاطفة . ثم وليت وجهك شطر الغرب ، ورحت تتنسم أول نسمات الحرية – كرأيك – حين خيل إليك أنك ألقيت عن نفسك قيوداً أربعة كبلتك بها الوطن .

ترى هل استمتعت هناك بالحرية التي افتقدت هنا ؟

وتقبلك عميد الجامعة هناك بقبول حسن لأنك صنيعة معهد (كذا) الأجنبي ، وإن جناب العميد لرجل علم وأدب وإنه لذو حيلة ودهاء ، ولكن ماذا أفدت هناك ؟

لقد عشت هناك مثلما عشت هنا : منقبض الأسارير تأنس بالوحدة وتطمئن إلى الخلوة ، تغدو إلى الجامعة وتروح إلى الحجرة ، تصغي إلى الدرس – صدر النهار – في غير ملل ، وتنكب على الكتاب – شطراً من الليل – في غير ضجر ، وإن عميد الجامعة هنا ليحبوك بعطفه ويغمرك بفضله لأنه يمت إلى عميد المعهد هنا بأواصر هي : الصداقة في الشباب والأخوة في الدرس والوحدة في الجنس والتآلف في الرأي . وأنت هناك طالب الجامعة مثلما كنت هنا طالباً في المدرسة ترضى بالقليل وتقنع بالتافه ، وأنت هناك خامل الذكر مثلما كنت هنا وضيع الهمة ، وأنت هناك بعيد عن لذائذ الحياة ومتعها مثلما كنت هنا تعاني الحرمان والضيق . ولكن عميد الجامعة أراد فأصبحت ، بعد سنتين ، دكتوراً في الفلسفة . وتراءيت في عيني رأيك فيلسوفاً ضخماً تقمصت الرزانة وتجملت بالهدوء ، ثم ركبك الغرور وجرفتك الكبرياء ، فما كان يليق بك أن تكون رجلاً ممن يعيش في مضطرب الحياة ونوازعها ، وأنت ابن سقراط وترب كنت وصاحب ديكارت . ولكن ، آه – يا صاحبي – لقد عجزت الفلسفة عن أن تسوي منك رجلاً آخر غير الذي كانه منذ سنين ، إلا أن تلوي لسانك بكلمات لا تبنية فتزيدك عيًّا على عيك ، وإلا أن تشوب لهجتك لكنة أعجمية بغيضة إلى القلب والنفس تضيف حمقاً إلى حمق فيك ، وإلا أن تجهر بآراء هدامة تحسبها حديثة مبتكرة تضم سفهاً إلى سفه فيك . ثم ... ثم جلست إلي في ندوة ثقافية في القاهرة تحدثني بآرائك قائلاً « أنا ابن الطبيعة وثمرة الحرية فدعني أهم في أرجاء الأرض لا يقيدني وطن ، ولا يمسكني دين ، ولا تربطني لغة . دعني أنطلق منها فهي أغلال ثقال تشل عقلي وتسمق خواطري وتعبث بأفكاري » فعجبت أن يكون هذا حديثك وأنت ابن الريف وثمرة الغيط وربيب الدين !

ماذا دهاك ، يا صاحبي ؟ أفكان لسنتين أن تحولا عقلك من حال إلى حال فتتنزل عن كرامتك وتنبذ المعاني السامية للوطن والدين واللغة ، على حين قد عشت نيفاً وأربعين سنة في وطنك ، عشتها جميعاً تتنقل بين المدينة والريف ، وأنت في المدينة لا تحس إلا العمل الشاق المضني وإلا هذا الزقاق الضيق القذر الذي تسكن في ناحية منه ، وأنت في الريف لا ترى إلا أهلك وهم من أوساط

الناس وإلا دارك وإن رائحة الروث ما تبرح تتأرج في جنباتها . يا عجبا ! فما بال الشاب يذهب إلى هناك ليعيش سنوات وسنوات، وهو في ثورة الشباب وفورة الصبا، يستمتع بالقوة والثراء ويتألق في النضارة والذكاء ... ما باله يعود إلى وطنه فلا تحس في لسانه التواء ولا في كلامه لكنة ولا في آرائه جفوة، على حين أنه بلغ غاية العلم وتسنّم ذروة الفلسفة .

قد كان لي أن أقول : لعل أضواء المدنية في الغرب قد خلبتك فغشي بصرك فما عدت ترى في الشرق إلا ذبالة توشك أن تنطفىء، أو لعل نور الثقافة الإفرنجية قد سلبك عقلك فما أصبحت تلمس هنا — في الشرق — إلا ظلمات من الجهل تكاثف بعضها فوق بعض، أو لعل بهرج الحضارة هناك قد طمس على قلبك فرحت تحتقر الوطن والدين واللغة ... قد كان لي أن ألتمس لك عذراً في شيء من هذا لو أنك أخذت منها بنصيب أو ضربت فيها بسهم، ولكنك عشت هناك على حيد الحياة لا ترى إلا الكتاب والدرس والحجرة، ولا تحس إلا العمل الرهق، ثم ... ثم الوحدة والحرمان .

ورجعت — يا صاحبي — إلى وطنك لتلتقفك قيودك من جديد . ولكن القبعة التي لبست ترفعت عن القرية وتسامت عن الريف، وأبوك شيخ هِمٌ عصفت به السنون فأعطت قوته ووهى جَلَده فهو يرنو إلى عطفك ويصبو إلى حنانك، وأمك عجوز شمطاء قد عبث بها الزمن فتقوس ظهرها وسقطت أسنانها فهي تهفو إليك، وقلبها يرف حواليك . لقد ترفعت القبعة عن القرية في حين أنها تبدّت لرئيسك القديم واستخذت لعميد المعهد الأجنبي . وهكذا تحررت من قيدين لترسف في قيدين .

وجاءك رسول أبيك يقول لك « إن أباك يكاد يلفظ آخر أنفاسه، وإنه ليهتف باسمك بين الحين والحين، وهو في غمرة المرض وطأة الحمى ... » وأصغيت إلى الحديث — يا صاحبي — بأذنك، وقلبك في شغل لا يحس معنى الإنسانية، فما انطلقت إلى القرية إلا حين جاءك البرق يقول « مات أبوك اليوم » مات أبوك وفي قلبه شوق يتأجج لأن يرى ابنه العاق .

وجلست إليك أمك في ضعفها وشيخوختها تستجدي عطفك ورجولتك، فأصغيت أنت إلى حديثها بأذنك، وقلبك في شغل لا يحس معنى الإنسانية . وجرفتك كبرياء القبعة فاستوليت على ميراثك من أبيك وحوشتيل، ثم طرت عن القرية إلى الأبد لتذر أمك وحدها ...

وجئت أنا — بعد أيام — لأعزيك في أبيك، فألفيتك تبسم — لأول مرة في حياتك — وأنت مسفر الوجه طلق المحيا . لقد كان يخيل إلى أنني سأراك منكسف البال شارد الذهن وقد أرمضك الحزن وهدّك الأسى، يفريك الندم على أن قصرت في حق أبيك، وابتهمت أمنيته الأخيرة وهو على فراش الموت . فما بالي أراك في نشوتك وسرورك لا يعنيك إلا أن تظفر ببعض ماله ! لقد تراءيت في ناظري رجلاً نزل من رجولتك وإنسانيته وكرامته في وقت معاً، فكرهتك واحتقرتك .

يا لقلبي ! إن في الحياة أناساً يتشحون بثوب الإنسان وإن ضلوعهم لتنضم على مثل روح الشاب ! آه لو انسلخوا من إهابهم لتكشفت نفوسهم عن مثل نتن الجيفة !

وهناك، في البلد الأجنبي، تعلمت فلسفات ثلاثاً نبعت كلها من القبعة التي لبست بعد أن نيّفت على الأربعين : فلسفة التذوق والجود، وفلسفة الكفران والكنود، وفلسفة الاستسلام والخضوع ...

وتلتقفك هنا رئيسك وعميدك معاً . أما رئيسك فرجل كبير في الحكومة ذو شأن ومكانة، وأما عميدك فرجل أجنبي ذو جاه وسلطان . وتنازعك الرجلان حيناً، ثم ظفر بك العميد . ظفر بك لتتحدث بلسانه وتتنكر برأيه وتتفانى بعقيدته، ولتنفث سموم جنسه في شباب الجيل، ولتعلم النشء أن القبعة شيء مقدس يستهوي العقل ويسجد له الفكر، على حين أنها شيطان يتوثب مكراً وخداعاً .

وجلست إلى تلامذتك توحي إليهم بفلسفة القبعة . وبدا لأعينهم ما يتوارى خلف كلماتك فتلاقت نظراتهم في عجب، وتقابلت ابتساماتهم في سخط، ثم انصرفوا من لدنك وعلى ألسنتهم كلمات الاحتقار والسخرية . لقد سخروا منك أنت أيها الفيلسوف العظيم لأنك أردت أن تمكر بهم وتستلبهم من الوطن والدين واللغة فما انطلى عليهم أسلوبك ولا خدعتهم فلسفتك . وقال واحد منهم : إن أستاذنا الفيلسوف قد لبس القبعة ذات مرة ... لبسها ليتزل من كرامته، وليتبذ المعاني السامية للوطن والدين واللغة ...

كامل محمود حبيب